معلومات البحث
أستلم: 8-3-2017
المراجعة: 27-3-2017
النشر: 1-4-2017

الخانات ..... معلم من معالم الحضارة العربية الإسلامية

إخلاص محمد العيدي
أستاذ مساعد/جامعة البلقاء التطبيقية/كلية العقبة الجامعية
Eklas28112006@yahoo.com
الدكتور حاتم نايل الضمور
أستاذ مساعد/ جامعة عمان الأهلية/ قسم العلوم الاجتماعية والانسانية
Htdmour2@yahoo.com

Printed ISSN: 2314-7113
Online ISSN: 5809-2289

الملخص

تُمَثل الخانات في الدولة العربية الإسلامية، مؤسسة خدمية، أنشأتها الدولة أو فاعلو الخير، في مراكز المدن، والطرق الخارجية البرية، والموانئ البحرية؛ لغاية تأمين مكاناً مناسباً، يوفر خدمة المبيت والطعام والشراب للمسافرين والغرباء داخل الدولة العربية ، ولا سيما للمحتاجين منهم .

انبثقت فكرة الخانات من التشريعات الإسلامية التي توصي بالاهتمام بالمحتاجين وأبناء السبيل، ثم تطورت هذه المنشأة بشكل تدريجي عبر العصور المتتالية، ومع ازدهار حركة التجارة داخل الدولة وخارجها، تطورت وظائف الخانات، فأصبحت بمثابة مؤسسة تجارية فندقية، تقدم للتجار جميع مستلزمات رحلاتهم التجارية.

ولأهمية هذه المنشأة الخدمية الاجتماعية الاقتصادية، تسعى هذه الدراسة لتأريخ لها كمَعلَم حضاري عمراني، يؤكد على مدى عراقة الحضارة العربية الإسلامية ، وعِظم عطائها الإنساني .

الكلمات الدالة: خانات المدن، خانات الطرق، مؤسسة خدمات عامة ، منشأة اقتصادية .

Abstract

Khans represent a service organization in the Arab Islamic state created by the state or philanthropists in the city centers, wild foreign roads and sea ports to secure a suitable place for serving shelter, food and drink for travelers and strangers; especially the poor ones; within the Arab state.

The idea of Khans were derived from Islamic legislations which recommend care about the needy and the wayfarers, then this property has evolved gradually over successive eras, and with the booming of trade movement within the country and abroad, the functions of Khans evolved, so the Khan became as a commercial hotel foundation offering all business trip necessities for traders.
Because of the importance of this socio-economic facility service, this study seeks to write down the chronicle of Khans as an urban civilization milestone confirming the nobility of the long history of Arab-Islamic civilization and its ennoble human liberality.
Key words: cities khan, roads khan, Public Services, Economic institution.

المقدمة

تزدخر حضارتنا العربية الإسلامية بالكثير من الصفحات المشرقة، والمعالم الباهرة، التي تثير في نفوس أبنائها المعاصرين، الإعتزاز والفخر بإنتسابهم اليها، وتُحَمِلَهم – بالوقت نفسه – مسؤولية دراسة تاريخهم الحضاري، بمنهجية علمية سليمة، تُبرز معالم حقب تاريخهم العريق، وتوثق منجزاته الهامة؛ ليكون نبراساً يوطد في نفوس أبناء هذه الأمة العربية الإسلامية مبدأ احترام الذات، ويدفعهم لتصدي للتحديات التي تهدد حضارتهم وتاريخهم. ومن هنا تأتي هذه الدراسة لإبراز الدور الحضاري للخانات، على مدى امتداد العصور الإسلامية، إبتداء من أواخر القرن الأول للهجرة، التي نمت فيها فكرة الخاتات، وحتى العصرين المملوكي ثم العثماني، الذين تطورت فيهما وظيفة الخانات، لتمثل مؤسسات خدمية اجتماعية واقتصاية، كان لها أثرها الواضح في خدمة المجتمع وتطوره. وقد تناولت هذا الموضوع من خلال التعريف بمفهوم الخان، وتتبع تطور بنائه ووظائفه عبر العصور الإسلامية المتتالية، والتفريق بين خانات المدن وخانات الطرق الخارجية من حيث، المهام والوظائف و شكل وطرق البناء، وأثرهما على الحركة التجارية الداخلية والخارجية، وفي الخاتمة أكدت هذه الدراسة على أهمية الخانات في التاريخ الحضاري العربي الإسلامي.

أهميه الدراسة

تنبثق أهمية هذه الدراسة من عاملين، أولهما: توضيح دور الخانات في تقديم خدمة المبيت والطعام والشراب لمن يقصدها من مسافرين سواء كانوا رحالة أو حجاج أو طلاب علم، أو تجار...وغير ذلك، على إختلاف أصولهم أو أديانهم أو

أجناسهم. وثانيهما: إبراز الخانات كأحد أهم المعالم الحضارية الاقتصادية التي تدلل على رقي المدنية العربية الإسلامية، وعِظم عطائها الإنساني.

منهجية الدراسة

أما منهجية الدراسة، فقد اعتمدت على المنهج التاريخي التحليلي، كون موضوع الدراسة يتعلق بمنشأة تاريخية قديمية، حيث تم جمع المعلومات من المصادر التاريخية والمراجع والبحوث التي أرخت للخانات، ثم اخضاع ما تم جمعه من معلومات لقواعد البحث العلمي، نقداً وتحليلاً، سعياً للوصول الى صورة قريبة من الحقيقة التاريخية، مع اتباع أصوليات وقواعد المنهج التاريخي في الكتابة.

مفهوم بالخانات

الخان بمفهومه البسيط عبارة عن مؤسسة خدمية، أنشأتها الدولة أو فاعلو الخير، في مراكز المدن والطرق البرية والخارجية والموانئ البحرية، لتقدم خدمة الطعام والشراب والمأوى لمن يقصدها من المسافرين، سواء كانوا رحالة أو حجاج أو طلاب علم أو تجار وغير ذلك. انتشر وجودها داخل الدولة العربية الإسلامية منذ أواخر القرن الأول الهجري(أيوب،2014) ، وبسبب توسع الحركة التجارية داخل الدولة وخارجها، ولاسيما في العصرين المملوكي والعثماني، تطورت وظيفة الخانات لتصبح بمثابة حانوت يوفر المكان اللائق لمبيت التجار وراحتهم، إضافة لتأمين المخازن المناسبة لبضائعهم، والمأوى اللازم والعلف الكافي لدوابهم وحيواناتهم (فواز،2001أ). ويؤكد وصف الرحالة ابن بطوطة_ الذي عاش في القرن السابع الهجري_ للخانات التي مرَ بها مسافراً عبر طرق التجارة التي تربط مصر بفلسطين وسوريا، على هذا التطور، إذ يصفها بأنها عبارة عن مبنى مربع أو مستطيل الشكل، مع مدخل كبير، وتحتوي فناءً داخلياً غير مغطى، تتوزع حوله عدد من المخازن لتخدم التجار(ابن بطوطة، 1968، ص31) . كما أن ابن منظور _الذي عاش هو أيضا في القرنين السابع والثامن الهجريين_ يُعَرِف الخان بالمكان الخاص بالتجار(ابن منظور، د.ت، مادة خون).

تاريخ الخانات في الدولة العربية الاسلامية

قد يكون من الصعب تحديد التاريخ الذي أنشئت فيه مباني الخانات في التاريخ الإسلامي، إلا أن فكرة الخانات بتأمين مكان يأوى اليه المسافرين، والغرباء وخاصة المحتاجين منهم؛ ليؤمنهم بمأوى وطعام وشراب ، جاءت من اهتمام المسلمين بأمر ابن السبيل، ونقصد في ابن السبيل: هو المسافر كثير السفر، أو الغريب الذي انقطع ويريد الرجوع الى بلده(ابن منظور، د.ت، مادة السبيل). و قد أبدى القرآن الكريم اهتماماً واضحاً بأبناء السبيل، وأكد على وجوب مساعدتهم، ووضعهم في صف ذوي القربى والمساكين، وجعل الإنفاق عليهم أحد أبواب صرف موارد الصدقات، وهذا ما حذا بحكام الدولة والأثرياء من رعاياها، بوقف عدد من الأبنية والبيوت لخدمة أبناء السبيل . ومن ذلك ما رواه ابن سعد في طبقاته عن اهتمام الخليفة عمر بن الخطاب– رضي الله عنه– بأبناء السبيل، فقد ذكر أن الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– أنشأ في المدينة المنورة داراً خاصة، سُميت "بدار الدقيق" ، لتكون مأوى للمنقطعين والضيوف وأبناء السبيل، وأمر بتزويدها بالدقيق والتمر والزبيب وكل ما يحتاج اليه نزلائها(ابن سعد،1904،ج6، ص561) . ويروي الطبري فيما نقله عن رواية كثير بن عبدالله، أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– سمح ببناء منازل على الطريق، بين مكة والمدينة، لتؤمن أبناء السبيل "بالظل والماء"(الطبري،1879،ج5، ص3735) .

ولما كانت فكرة الخانات مرتبطة بنظم المجتمع الإسلامي منذ فترة مبكرة جداً، فإننا نجد أن مصادر القرنين الثاني والثالث الهجريين ذكرت عدداً واسعاً من الخانات دون تفسير لكلمة "خان" مما يقطع بأن الخانات كانت معروفة وشائعة في مجتمعات آنذاك، ولاسيما تلك التي أنشئت على طول الطرق التجارية بين المدن الإسلامية. وكان أكثر رواد هذه الخانات من التجار وطلبة العلم والحجاج وأبناء السبيل، إضافة للفقراء والمساكين؛ لِمَا كانت تقدمه لهم من الطعام والشراب مجاناً. ومما روته مصادر هذه الفترة، ما ذكره ابن سعد في " الطبقات الكبرى" أن الخليفة عمر بن عبد العزيز ، أمر ببناء خانات على طريق خراسان(ابن سعد،1904،ج266، ص6)، وورد في كتاب تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري ضمن حوادث سنة 241هـ ذكر لخان اسمه خان عاصم لصاحبه عيسى بن جعفر بن مُحَمَّد بن عاصم، أحد أهم محدثي

القرن الثالث الهجري في بغداد(الطبري،1879،ج12، ص1514) . وجاء في ترجمة الجرجاني لأبي علي الحسن بن علي الطوسي، رواية مفادها أن الطوسي كان في سنة 273هـ في خان يسمى بخان نصير في جرجان(الجرجاني، 1950، ص383). ويذكر ابن المعتز في كتابه " طبقات الشعراء" أن الشاعر دعبل بن علي، التقى في القرن الثالث الهجري بأحمد بن الحجاج مولى أبو جعفر المنصور بخان على الطريق من بغداد الى مصر(ابن المعتز، د.ت، ص181) . كما يُروَى أن سعدان بن يزيد–وهو من علماء القرن الثالث الهجري– التجأ في سنة 262هـ الى إحدى الخانات في ليلة مطيرة ليحتمي من البرد الشديد (السرجاني،2010م)، ويبدو من رواية ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية، انه لم يقتصر قصّاد الخانات على المسافرين، من تجار وطلاب علم، بل نجد أن الخليفة العباسي المعتضد بالله، نزل بخان قرب مدينة الاسكندرونة، أثناء تفقده لاحوال الثغور والمدن الشامية عام 287هـ(ابن كثير، 1988،ج13، ص 186.(

إن الانتشار الواسع للخانات في الدولة العربية، وخاصة خانات الطرق الخارجية ، كان ضرورة أوجدتها المساحة الهائلة للدولة الإسلامية التي كانت آنذاك تمتد من بلاد ما وراء النهر شرقاً الى المغرب والاندلس غرباً، ومن بلاد الروم شمالاً الى بلاد النوبة والسودان جنوبا وغربا، وهو ما أدى الى التمازج بين أبناء هذه الدولة، وازدهار حركة العلم ، والتجارة ؛ فكانت الخانات تيسيرا على الرحالة من عناء السفر(أيوب،2014).

ولا نبلغ القرن الرابع الهجري، حتى نعثر على ما يقطع بسعة انتشار الخانات في الدولة العربية الإسلامية، وتطور وظائفها، فثمة إشارات مبكرة الى اتجاه الخانات في هذا القرن نحو التخصص، فقد أشار المقدسي الى خان في البصرة يسمى "بدار البطيخ"، كانت ترد اليه جميع أصناف الفاكهة (المقدسي،1877، ص117)، كما جاء في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي خبر يؤكد على تسمية أحد الخانات في عهد الخليفة المقتدر سنة 305هـ" بخان الخيل"، ولعل هذا الخان كان جزءاً من دار الخلافة (الخطيب البغدادي ،1417هـ، ج7، ص217). ولكن على الرغم من أن بعض المصادر تشير إلى ظهور هذه الخانات المتخصصة منذ القرن الرابع الهجري ، إلا أن نضج هذا النوع من الخانات تم في عصر الدولة المملوكية امتدادا الى العصر العثماني، حيث كثرت الخانات المتخصصة بأنواع محددة من المتاجرات مثل خان الحرير وخان الزيت في

حلب وخان الحبالين في دمشق، وخان الجوخ في اسطنبول .....وغيرها الكثير(أيوب،2014). ولا شك أن هذا التطور ناتج عن تطور المهام التجارية للخانات التي لم تعد تقتصر وظيفتها على إيواء المسافرين والتجار وتزويدهم بالطعام والشراب، بل أصبحت مع ازدهار النشاط التجاري ، وزيادة عدد التجار النازلين فيها، بمثابة أسواق تجري فيها عمليات البيع والشراء، بين التجار النزلاء فيما بينهم، وأهل القرى القريبة للخان، الذين كانوا يجدون فيه مكانا مناسبا لتصريف بضائعهم الزراعية وتبادل عمليات البيع والشراء مع التجار القادمين اليهم. وهذا ما سيتم مناقشته في هذه الدراسة عند الحديث عن تطور مهام الخانات فيما سيأتي .

رافق تطور وظائف الخانات في عصر الدولة المملوكية، تغيرات في نمط البناء وحجمه واتساع مساحته، وتنوع مرافقه، ليتمكن من القيام بمهامه، ولعل في خان الظاهر بيبرس الذي بناه الظاهر بيبرس في فلسطين، خير مثال على تطور الخانات المملوكية،حيث يُذكر أن هذا الخان بُني ليكون خاناً للسبيل في فلسطين سنة662هـ/ 1263م، وليستوعب الأعداد الكبيرة من الزائرين لهذه المدينة المقدسة، زود الخان بعدد كبير من الغرف المعدّة للنوم والراحة، كما اشتمل إضافة للمرافق المعتادة في الخان، مرافق جديدة مثل الطاحونة لطحن القمح، فقد كان من أعمال البر التي يقدمها الخان توزيع كميات من القمح على الفقراء والمساكين، وبستان لتوفير الغلات الزراعية، ودكان أو مشغل لإصلاح النعال للذين جاءوا من أماكن بعيدة (مشعل،2011، ص 76). ويؤكد مجير الدين الحنبلي على ذلك في طي حديثه عن الخان إذ يقول" شرط فيه أشياء من فعل الخير، من تفرقة الخبز على بابه وإصلاح حال النازلين به، وأكلهم وغير ذلك" (مجير الدين الحنبلي، 1973، ج 2، ص87).

وبلغت الخانات ذروة تطورها في عهد الدولة العثمانية، إذ تؤكد الدراسات التي أرخت لخانات هذه الدولة على أن خانات العهد العثماني تميزت بهوية واضحة لها خصائصها وعناصرها المميزة، كما إمتازت بتنوع في التشكيل(طعمة،2010، ص215)، ويمكن ارجاع هذه التطورات لعدة عوامل أهمها، تطور الطراز المعماري العثماني

خلال المراحل الزمنية المختلفة لعمر الدولة، واختلاف التوزّع الاقليمي الذي لعب دوراً في ظهور تأثيرات محلية خاصة بكل مدينة من المدن العثمانية، إضافة إلى التنوع الوظيفي للخان نفسه، إذ أن دورها تعدى الدور الخاص بها كمؤسسة خدمية اجتماعية أو كمنشأة اقتصادية لها دور مؤثر في الحركة التجارية، ليشمل مجالات أبعد وأشمل أهمها اتخاذ بعض الخانات داراً لضرب (سك) النقود، حيث تشير الدراسات إلى أن باشوات بغداد العثمانيين كانوا يضربون النقود في خان يقع في سوق السكة خانة. وهناك بعض الخانات كان لها أهمية متميزة، إذ أنها اتخذت ديواناً للدولة، وكان يشرف عليها صاجب الديوان، ولعل من أبرز تطورات خانات الطرق في العهد العثماني أنها استُخدمت كقلاع عسكرية وقت الأزمات، كما هو الحال في خان العقبة الذي تحول الى قلعة عسكرية استخدمت لفرض السيطرة على المناطق الجنوبية للدولة العثمانية(البرادوستي، 2011، ص373).

بعد تتبع تاريخ الخانات في الدولة العربية الاسلامية، توصلت الدراسة الى أن هذه الخانات هي من المؤسسات الخدمية الاجتماعية، التي يعود إنشائها إلى عصور الدولة الاسلامية الأولى، وقد شهدت تطورات واضحة عبر العصور المتتالية، أهلتها لترتقي الى مستوى المنشآت الاقتصادية المؤثرة في الحركة التجارية، ولعل هذ التطور برز أكثر ما يكون في عهد الدول التي شهدت اتساعاً في رقعتها الجغرافية ، وارتبطت مدنها وأقاليمها بشبكة هائلة من طرق المواصلات التي كانت تجوبها القوافل التجارية بكل راحة وأمان .

تخطيط الخان وبناؤه

كان للخانات نوعان، أحداهما بني على الطرق الصحراوية الخارجية، وسمى بخان المسافرين أو خان القوافل، وآخر بني داخل المدن وسمي بخان التجار. اتسم التصميم الهندسي لبناء الخانات بنمط ثابت، يتألف من طابقين مسورين بسور عالٍ، يتكون الطابق الأرضي من مبنى له باب كبير يحيط به واجهة مزخرفة منقوش عليها تاريخ البناء، يتسع لدخول الرواحل المحملة بالبضائع، و في وسطه باب صغير يسمى "الخوجة" لدخول الناس ، اذا لم يكن هناك حاجة لفتح الباب الكبير، ويفتح الباب الكبير على دهليز مسقوف بقبوات، وينتهي الى باحة سماوية واسعة تتوسطها بركة ماء، ويحيط بها

غرف ومحلات لإيداع البضائع، ومكاتب للتجار ومسجد ، إضافة الى بئر ماء، وثمة أقسام ملحقة بهذا الطابق لإيواء الحيوانات وتخزين الأعلاف. أما الطابق الثاني فيتكون من رواق على جانبه غرف صغيرة مسقوفة مخصصة لنوم نزلاء الخان من المسافرين والتجار والحجاج وطلاب العلم الوافدين من بلاد أخرى(عبيدات، 1998، ص20) إضافة لهذا التصميم، هناك إضافات معمارية أخرى أُلحقت بالخانات، فرضتها طبيعة المكان والمهام المخصصه له، فيما يخص خانات المدن، فقد كانت تشيد داخل سور المدينة، في المناطق التي يتمركز فيها الثقل التجاري، وتفتح أبوابها الرئيسة على الشوارع المرتبطة بالاسواق المركزية، فعلى سبيل المثال لا الحصر، في دمشق تفتح بوابات خان الزيت، وخان الصنوبر، وخان سليمان باشا على شارع مدحت باشا، وتفتح بوابات خان أسعد باشا، وخان العامود، وخان الصدراني على سوق البذورية، وهكذا جميع خانات مدينة دمشق (طعمة،2010، ص 38) . وفي بغداد يقع خان الرنيس الكائن في سوق البزازين، على طريق سوق الصفافير، ويقع خان الصفافير على مدخل سوق الصفافير، ويقع خان جغان في قلب المنطقة التجارية في الشورجة، ومن خانات سوق الفزازين خان الذهب الكبير وخان الذهب الصغير(جمانة، 2007) وهكذا شيدت جميع خانات المدن الاسلامية في بغداد وغيرها من المدن على الطرق المؤدية الى الأسواق التجارية المركزية.

وتختلف مساحة الخانات في المدن من مبنى إلى آخر وفقاً لأهمية الخان ومكانته، ونوع التجارة المرتبطة فيه، ففي دمشق يُعد خان الزيت وخان الحرير من أكبر خانات دمشق، ولذلك لان تجارة الحرير والزيت كانتا في تلك حقبة العثمانية تحضى بشأن هام(طعمة،2007، ص 52). وفي الموصل يُعد خان حمو القدو من أكبر خانات الموصل، وهو خان عثماني بني في سنة 1882م، يشغل مساحة كبيرة تُقدر بـ(3794متر مربع) ، ويقع في محلة باب السراي، وقد حرص بانى هذا الخان، الحاج عبدالله جلبي حمو القدوة، على زيادة مساحته لاستيعاب العدد الكبير من التجار الذين ينزلونه، فقد كان القوافل التجارية تأتيه من المناطق الكردية في شمال العراق، وقوافل البدو في منطقة الجزيرة ، والقوافل التجارية التي كانت تجول المناطق التجارية باتجاه بغداد وحلب والموصل(هاشم،2007، ص9). كما تميزت خانات بغداد- كما هو شأن خانات المدن الاسلامية الأخرى- باختلاف مساحاتها، فقد تميز خان مرجان الذي أمر حاكم بغداد أمين

الدين مرجان ببنائه في عهد السلطان أوديس ابن الشيخ حسن الاليخاني سنة 670هـ، بسعة المساحة وارتفاع الجدران وروعة العمارة ودقة الزخرفة(جمانة،2007).

اتصف فناء خانات المدن بسقف مفتوح، حتى العهد العثماني، اذ بدأت تنتشر ظاهرة سقف الفناء بقباب، ولعل هذا التغيير كان لتسهيل عمل الخان في فصل الشتاء، ولاسيما في الخانات التي تتمركز فيها حركة التجار. وأول خان تم سقف فنائه في دمشق كان خان سليمان باشا العظم، ثم تلته بقيه الخانات مثل خان التتن الذي قبب سقف فنائه بثلاثة قباب، وخان العمود الذي قبب باربعة قباب. وأهم تطور لتسقيف فناء الخان في العهد العثماني كان بتقبيب خان أسعد باشا بتسع قباب كاملة(طعمة، 2007، ص 66)، وخان مرجان في بغداد وكان يُعرف بخان (الأورنمة) أي الخان المسقوف في اللغة التركية، ورغم سعة هذا الخان إلا أنه سُسقف بطريقة معمارية فائقة الدقة والجمال(جمانة،2007). ويبدو أن ظاهرة تقبيب الفناء انتشرت في جميع خانات المدن في الدولة الاسلامية في العهد العثماني .

ومن الطرز المعمارية الأخرى التي شهدت تطوراً في بناء الخانات ، التصميم الهندسي لغرف الخانات، فقد كان الخان يتكون من مجموعة غرف في الطابق الاسفل وأخرى في الطابق الأعلى ، وكانت غرف الطابق الأول تستخدم لخزن البضائع ومكاتب التجار، وهناك غرف خدمية مثل الحمامات والمطابخ والمستودعات ، إضافه الى الغرف المخصصة للحيوانات، بينما خصصت غرف الطابق الأعلى لمبيت النزلاء، وكانت غرف الخان تختلف في المساحة والعدد وفقاً لمساحة الخان وأهميته التجارية، وكانت في الغالب مفردة ومربعة الشكل أو مستطيلة حتى القرن الثامن عشر الميلادي إذ اتخذت هذه الغرف طرازاً معمارياً جديداً تمثل في بناء غرف مزدوجة أو ثلاثية وقد ظهر هذا التغيير في خانات بلاد الشام بشكل واضح حيث كانت الغرف تأخذ تصميم ثنائي وأحياناً ثلاثي فتكون الغرف الواحدة مكتبا للتاجر، وفي نفس الوقت مخزنا لبضاعته (طعمة، 2007، ص64).

وفيما يخص خانات الطرق الصحراوية ، فقد بنيت على منابع المياه ومجاري الأنهار؛ ويبتعد الواحد من الآخر مسيرة نهارٍ، أيّ ما يقارب الثلاثين كيلومترًا (عتمة،2008، ص12) ، ويضم كل خان على فناء مركزي مفتوح يحيط به مخازن

وحوانين لخزن البضائع يجاورها فرن ومصلى، وإصطبلات خاصة بالدواب، وفي الطابق الثاني مجموعة من الغرف والأورقة السكنية المخصصة لإقامة الحجاج والمسافرين، وألحق بكل خان بركة ماء لتزويد الخان باحتياجاته من مياة الشرب والاستخدام*. وتميزت خانات الطرق عن غيرها من خانات المدن، ببنائها على هيئة قلاع أو حصون صغيرة مدعمة بالأبراج والشرفات والسقاطات والمزاغل، ويكون للبناء مدخل واحد محميّ ببرجين دفاعيين على جانبي الباب باعتباره النقطة الأضعف في التحصين (عبيدات، 1998، ص20). وقد تم الاهتمام بتحصين خانات الطرق نتيجة الأخطار التي يمكن أن تتعرض لها خان من غزو البدو والعصابات، على النقيض من الخانات المشيدة في المدن التي كانت أقل تحصينا.

وفيما يخص المواد المستخدمة في بناء الخان، فقد استخدمت في الغالب حجارة كلسية وبازلتية، وصوانية. إضافة لعناصر معمارية إنشائية وزخرفية تختلف بنوعيتها تصاميم زخارفها من عصر الى آخر(عبيدات،1998،ص20).

وظائف الخان

لقد كان الهدف الرئيسي من بناء الخانات، وخاصة خانات الطرق، هو توفير الأمن والحماية للمسافرين وطلاب العلم وقوافل الحجاج والقوافل التجارية، بمعنى أن الوظيفة الأولى للخانات كانت تقديم خدمة السكن والحماية للرحالة من داخل البلاد وخارجها وعلى اختلاف جنسياتهم وأجناسهم(فواز،2001ب)، فجميع الخانات كانت تحتوي على غرف للمبيت ومخازن وإسطبلات ومطبخ يقدم للنزلاء وجبات طعام مجانية فيها خبز وطبيخ يكون اللحمة احدى مكوناته وبعض الحلوى (السرجاني،2010). وقد تنوعت هذه الخدمات الخيرية واختلفت من خان الى آخر، وفقاً لمقدار الموارد المالية الداعمة للخان، والشخصيات القائمة على بنائه وإعماره.

ومع تطور الحركة التجارية بين أقطار الدولة العربية الإسلامية، اتسعت مهام الخانات لتشمل إضافة للوظيفة السكنية وظائف مهنية وتجارية، حيث أصبحت الخانات بمثابة أسواق تجارية يتم فيها عمليتي البيع والشراء، حيث يتوافد اليها أهل القرى القريبة منها لتصريف بضائعهم الزراعية المنتجة أو قد يتخذها بعض السكان مكانا يبيعون ما يحتاجه المسافرين،

إضافة الى ذلك أن المسافرين أنفسهم كانوا يبيعون ويشترون مايحتاجونه من البضائع مع السكان(البرادوستي،2011، ص333) . وفي العصور الاسلامية المتأخرة ازدهرت الوظيفية التجارية للخانات حتى اصبح بعضها يخصص بنوع معين من البضاعة، ومن هذه الخانات على سبيل المثل لا الحصر: خان القلاوين وهو من خانات الموصل القديمة، كانت تباع فيه البضائع من دهن القليون الذي يستخدم في التدخين(يحيى،2012، ص33)، وخان التتن _والتتن كلمة تركية معناها التبغ _ مما يعني أن هذا الخان خصص عند إنشائه لتجارة التبغ(الريحاوي،2005، ص63)، وخان الجلود الذي يقع عند الربض الأسفل في الجهة الجنوبية من مدينة الموصل القديمة، وهو من الخانات المرموقة المختصة في بيع وشراء وخزن الجلود ولوازمها(يحي، 2012، ص45) وغيرها الكثير.

وفي العصر العثماني اتسعت وظائف الخانات وتعددت، حتى أن بعضها استخدم في بعض الاوقات كمحطات لجباية الضرائب(عبيدات، 1998 ، ص115)، وأخرى سُكت فيها العملة، حيث تشير الدراسات إلى أن باشوات بغداد العثمانيين كانوا يضربون النقود في خان يقع في سوق السكة خانة، وهناك خانات أُتخذت ديواناً للدولة، وكان يشرف عليها صاحب الديوان، ولعل من أبرز تطورات خانات الطرق في العهد العثماني أنها استُخدمت كقلاع عسكرية وقت الأزمات، كما هو الحال في خان العقبة الذي تحول الى قلعة عسكرية استخدمت لفرض السيطرة على المناطق الجنوبية للدولة العثمانية(البرادوستي، 2011، ص 373).

ارتبطت التطورات المتتالية في مهام الخان، بزيادة عمال الخان والقائمين عليه، وكان للخان عمالاً مختصين يقدمون الخدمات للنزلاء ويحمون ممتلكاتهم من قطاعي الطرق، ومن هؤلاء العمال "القيم" الذي يعدّ الشخص المسؤول عن إدارة الخان، والمتولي الذي يتولى حسابات الخان، ويكون وكيلا شرعيا ينوب عن مالكه، ويبدو أن للمتولي مهمة أخرى وهي مراقبة المبنى والمحافظة سسعليه، فهو المسؤول عن ترميمه وصيانته، وللخان ايضا حراس مهمتهم حماية النزلاء وبضائع التجار، وإغلاق الأبواب ليلا(البرادوستي، 2011، ص 68) ، إضافة لعمال المطبخ والاسطبلات وغيرهم.

ولسد النفقات المالية المترتبة على الخان وجوه عدة، الشائع منها أن تتكفل الدولة بنفقات الخان ولاسيما تلك التي أمر الخلفاء أو القادة بإنشائها، كما في خان الظاهر الذي أمر الظاهر بيبرس ببنائه في القدس لتقديم اعمال الخير لزوار هذه المدينة المقدسة ويذكر الباحث مشعل في دراسته المفصله لهذا الخان، صور متعدده من أوجه الخير التي يقدمها هذا الخان، منها إعداد الخبز لجميع نزلائه وعابري السبيل والفقراء الذين يقصدونه، وتقديم المال للفقراء والمنقطعين وابناء السبيل، وإصلاح نعال المشاه القادمين من أماكن بعيده...الخ(مشعل،2011، ص76). كما كانت بعض الخانات تعتمد في سد نفقاتها على نظام الوقوف، والوقف كما هو معروف يكون بحبس الاصل وتسبيل المنفعة ابتغاء مرضاه الله، حيث خصص بعض أهل اليسار والغنى أوقافا لرفد خاناتهم بمورد مالي يغطي نفقات عمارتها وتجديدها وتقديم ما يلزم لنزلائها من خدمات وما يحتاج القائمين عليها من رواتب ومستلزمات(أيوب،2014). هذا فيما يخص الخانات الخيرية المخصصة لعمال الخير، أما الخانات التجارية الكبرى فقد كانت هي نفسها موردا ماليا وقف لاعمال خيرية ومن ذلك نذكر خان الجفت في الذي تعود ملكيته الى أسرة الجليليين، وكان وقفاً على الحرمين الشريفين وخان النعل الذي كان وقفاً على جامع ومزار الامام عون الدين ومدرسة الحاج زكريا الكائنة في باب العراق (يحيى، 2012، ص 39) ...الخ.

النتائج والتوصيات

من خلال تتبع صفحات هذه الدراسة الموسومة بـ"الخانات...معلم من معالم الحضارة العربية الإسلامية، نخلص بجملة من النتائج من أهمها:

1. تمثل الخانات في الدولة العربية الإسلامية، مؤسسة خدمية، أنشأتها الدولة أو فاعلو الخير، في مراكز المدن، والطرق الخارجية البرية، والموانئ البحرية، لغاية تأمين مكاناً مناسباً، يوفر خدمة المبيت والطعام والشراب للمسافرين والغرباء داخل الدولة العربية ، ولا سيما المحتاجين منهم.
2. بعد تتبع تاريخ الخانات في الدولة العربية الاسلامية، توصلت الدراسة الى أن هذه الخانات من المؤسسات الخدمية الاجتماعية، التي يعود إنشائها إلى عهود الدولة الاسلامية الأولى، وقد شهدت تطورات واضحة

عبر العصور المتتالية، أهلتها لترتقي الى مستوى المنشآت الاقتصادية المؤثرة في الحركة التجارية، ولعل هذا التطور برز أكثر ما يكون في عهد الدول التي شهدت اتساعاً في رقعتها الجغرافية وارتبطت مدنها وأقاليمها بشبكة هائلة من طرق المواصلات التي كانت تجوبها القوافل التجارية بكل راحة وأمان .

3. للخانات نوعان، أحداهما بني على الطرق الصحراوية الخارجية، وسمى بخان المسافرين أو خان القوافل، وآخر بني داخل المدن وسمي بخان التجار. وقد اتسم التصميم الهندسي لبناء الخانات بنمط ثابت، يتألف من طابقين مسورين بسور عالٍ، يتكون الطابق الأرضي من مبنى له باب كبير يتسع لدخول الرواحل المحملة بالبضائع، وفي وسطه باب صغير يسمى "الخوجة" لدخول الناس ، ويفتح الباب الكبير على دهليز مسقوف بقبوات، وينتهي الى باحة سماوية واسعة تتوسطها بركة ماء، ويحيط بها غرف ومحلات لإيداع البضائع، ومكاتب للتجار ومسجد ، إضافة الى بئر ماء، وثمة أقسام ملحقة بهذا الطابق لإيواء الحيوانات وتخزين الأعلاف. أما الطابق الثاني فيتكون من رواق على جانبه غرف صغيرة مسقوفة مخصصة لنوم نزلاء الخان من المسافرين والتجار والحجاج وطلاب العلم الوافدين من بلاد أخرى. إضافة لهذا التصميم، هناك إضافات معمارية أخرى أُلحقت بالخانات، فرضتها طبيعة المكان والمهام المخصصه له.

4. تختلف الخدمات الخيرية التي كانت تقدمها الخانات للنزلاء وفقا لمقدار الموارد المالية المخصصة للخان، والشخصيات القائمة على بنائه وإعماره .

5. يخصص لكل خان عمالاً يقدمون الخدمات للنزلاء ويحمون ممتلكاتهم من قطاعي الطرق. ومن أهم عمال الخان "القيم" الذي يعدّ الشخص المسؤول عن إدارة الخان، والمتولي الذي يتولى حسابات الخان، ويكون وكيلا شرعيا ينوب عن مالكه، ويبدو أن للمتولي مهمة أخرى وهي مراقبة المبنى والمحافظة عليه، فهو المسؤول عن ترميمه وصيانته، وللخان ايضا حراس مهمتهم حماية النزلاء وبضائع التجار، واغلاق الأبواب ليلا.

6. لسد النفقات المالية المترتبة على الخان وجوه عدة، الشائع منها أن تتكفل الدولة بنفقات الخان ولاسيما تلك التي أمر الخلفاء او القادة بانشائها. كما كانت بعض الخانات تعتمد في سد نفقاتها على نظام الوقوف حيث خصص بعض أهل اليسار والغنى أوقافا لرفد خاناتهم بمورد مالي يغطي نفقات عمارتها وتجديدها وتقديم ما يلزم لنزلائها من خدمات وما يحتاج القائمين عليها من رواتب ومستلزمات

وبعد هذا العرض السريع لدور الخانات التاريخي في الدولة العربية الاسلامية، نقف بإجلال أمام إبداعاً حضارياً إسلامياً راقياً، قدم عبر قرون طويلة خدمات مجانية لكافة المسافرين، وأبناء السبيل على إختلاف طبقاتهم وأجناسهم، سواء كانوا من داخل المدن الإسلامية أومن خارجها، ويؤكد على إنسانية الحضارة الإسلامية، ورقي مدنيها وعظم العطاء الإنساني لهذه الحضارة الخالدة .

وفي النهاية، توصي الدراسة بمزيد من الأبحاث للخانات وأنظمة بنائها، وتطورها، وعناصرها المعمارية والإنشائية. كما توصي بالمحافظة على الخانات الإسلامية الباقية وترميمها لأنها تمثل صورة مشرقة للتاريخ العربي الإسلامي .

الملاحق: صور الخانات

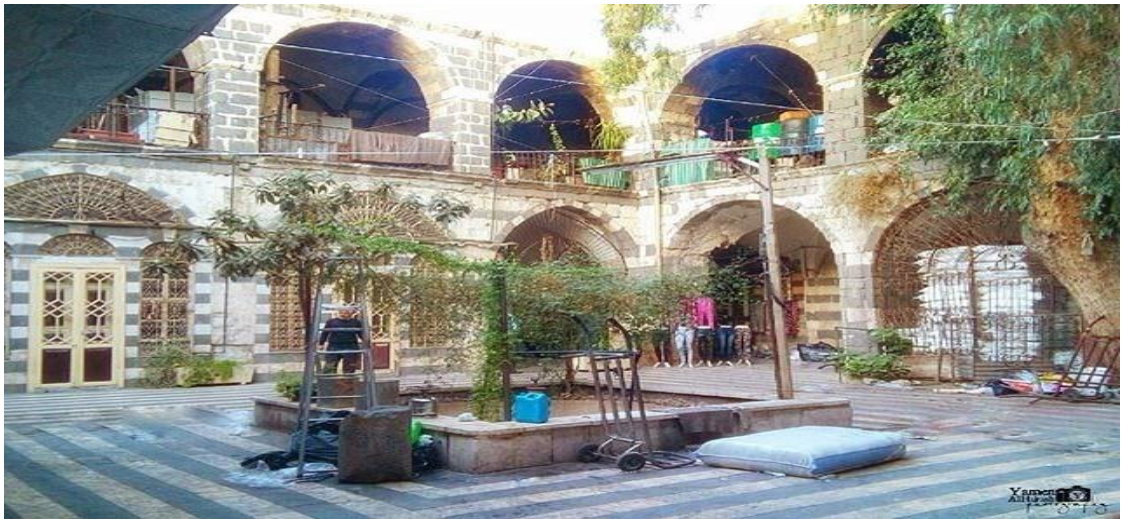

صورة(1) : خان الزيت في حلب

المصدر http://albahethon.com :

صورة(2): خان الحرير في حلب

المصدر http://www.alazmenah.com :

صورة رقم(3): الحركة التجارية في خان الشورجة في بغداد

المصدر http://www.alhakikanews.com :

صورة رقم(4) : خان العقبة الصحراوي

المصدر http://www.alkhaleej.ae :

صورة رقم(5) أحد الخانات الصحراوي (خان العقبة جنوب الأردن(

المصدر http://www.rasseen.com :

صورة رقم(6): أحد خانات المدن(خان الصوالحة في حلب(

المصدر http://www.esyria.sy :

صورة رقم(7): طوابق الخان (خان الصيداوية في صيدا(

المصدر http://saidacity.net :

صورة رقم(8): بوابة خان الزر

المصدر http://www.esyria.sy :

صورة رقم(9): القباب التي تغطي اسقف خانات المدن(قباب خان إسعد باشا(

المصدر https://ar.wikipedia.org/wiki :

صورة رقم(10) خانات الفوافل من الداخل

المصدر http://wikimapia.org :

المراجع والمصادر

1. ابن بطوطة، مُحَمَّد بن عبدالله.(1968). رحلة ابن بطوطة. بيروت: دار التراث .
2. ابن سعد، مُحَمَّد بن سعد.(1904هـ).الطبقات الكبرى. تحقيق مُحَمَّد عبدالقادر عطا. (ط1). بيروت: دار الكتب العلمية .
3. بن المعتز، عبيدالله بن مُحَمَّد .(د.ت). طبقات الشعراء. تحقيق عبدالستار أحمد فراج. القاهرة : دار المعارف.
4. ابن منظور، مُحَمَّد بن مكرم.(د.ت). لسان العرب . بيروت: دار صادر.
5. ابن كثير، اسماعيل بن عمر.(1988). البداية والنهاية. تحقيق علي شيري.(ط1). بيروت: دار احياء
6. أيوب، مُحَمَّد شعبان.(نوفمبر، 2014). الخان...قصة منشأة خدمية في حضارتنا، مجلة الوعي الاسلامي، عدد نوفمبر. استرجعت منibnayob.blogspot.com

7. البرادوستي، مُحَمَّد شعلان.(2011). الخانات والقيساريات في كويسنجق في العصر العثماني. رسالة دكتوراة. سوريا: دمشق.

8. الجرجاني، حمزة بن يوسف.(1950). تاريخ جرجان. (ط1). الهند: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية.

9. جمانة.(2007). تجوال تاريخي في خانات العراق القديمة. منتديات العراق. استرجعت من Iraq.ir.com

10. الخطيب البغدادي، أحمد بن علي.(1417هـ). تاريخ بغداد . تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية.

11. الريحاوي، عبدالقادر.(2005). روائع التراث قي دمشق. دمشق:التكوين للطباعة والنشر والتوزيع.

12. السرجاني، راغب.(2010). الفنادق والخانات في الحضارة الاسلامية، موقع قصة الاسلام. استرجعت من.islamstory.com

13. الطبري، مُحَمَّد بن جرير.(1879). تاريخ الرسل والملوك. الهند: مطبعة ليدن

14. طعمة، أنيت بنية.(2010). الخانات العثمانية في سوريا والمحافظة على الهوية المعمارية، رسالة ماجستير، جامعة دمشق

15. عبيدات، إسلام ماجد.(1998). الخانات الإسلامية خلال الفترة العثمانية في جنوب الأردن. رسالة ماجستير. الأردن: جامعة اليرموك.

16. عتمة, مُحَمَّد علام فوزي.(2008). الخصائص المعمارية للخانات الإسلامية(خان الوكالة في مدينة نابلس). فلسطين: جامعة النجاح.

17. فواز، ربيع.(2001أ). تاريخ الخان في المنطقة العربية (مصطلح"الخان" وتعدد وظائفه)، مجلة الحياة، عدد14058. استرجعت من daharchives.alhayat.com

18. فواز، ربيع.(2001ب). تاريخ الخان في المنطقة العربية(مواقع الخانات)، مجلة الحياة، عدد14059. استرجعت من daharchives.alhayat.com

19. مشعل، عمر موسى.(2011). من تاريخ الحركة العمرانية بفلسطين في العهد المملوكي(خان الظاهر بيبرس). حوليات القدس. العدد12.

20. مجير الدين الحنبلي.(1973). الأنس الجليل بتاريخ القدس والجليل. عمان: مكتبة المحتسب.

21. المقدسي، مُحَمَّد بن أحمد.(1877). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. الهند: مطبعة ليدن.

22. هاشم، هاشم سوادي.(2008). اسهامات الموصل الحضارية في العمارة الإسلامية في العهد العثماني، الخانات التجارية أنموذحا، مجلة التربية والتعليم، مجلد15، العدد3.

23. يحيى، اكرم مُحَمَّد.(2012). خطط خانات الموصل خلال العهد العثماني، دراسات موصلية، العدد28.